

سؤال الذات في رواية أنا قبل كل شيء "للجوهرة الرمال

Self questioning in the Novel 'I am above
everything ' for Al-Jawhara Al-Ramal

د. جيلالي بوداني

جامعة الجيلالي بونعامه خميس مليانة الجزائر
djilali.boudani@univ-dbkm.dz

تاريخ النشر: 2025/12/26	تاريخ القبول: 2025/12/03	تاريخ الإرسال: 2025/07/20
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تناولت هذه الدراسة البحث في مسألة الأنا فلسفياً وأدبياً، واتخذت العمل السردي للأدبية الجوهرة الرمال، والموسوم بـ "أنا قبل كل شيء"، مجالاً للوقوف على أهمّ الأنساق الثقافية الظاهرة والمضمرة من خلال استنطاق بعض الوقفات المحمّلة بالبوح والاعتراف، والمناجاة والحوارات التي كشفت حجم المعاناة الذي تعيشه المرأة العربية في المجتمعات التي ما زالت تغيب حقّها في الحياة سواسيةً مع الجنس الآخر، وحاولت المقاربة إمطة اللثام عن فكرة التحرّر من التسلّط الذكوري وإثبات الذات التي دعت إليها الأدبية الساردة/البطلة في ثنايا خطابها.

الكلمات المفتاحية:

الأنا، التسلّط، الأنساق، التحرّر، المجتمع، القبيلة.

Abstract :

This study explores the issue of the Ego from both philosophical and literary perspectives, focusing on the narrative work of author Aljawhara Alramal, titled "I Am Before Everything." The novel serves as a field to examine prominent and underlying cultural patterns by analyzing moments filled with confession, expression, inner monologue, and dialogues that reveal the depth of suffering experienced by Arab women in societies that still deny them equal rights. The approach attempts to shed light on the idea of liberation from patriarchal dominance and the assertion of self, advocated by the author/narrator/protagonist throughout her narrative.

Key words::

Ego, dominance, patterns , liberation, community, tribe.

01.مقدمة:

تتخذ مسألة الذات بعداً روحياً ووجودياً، وموضوعاً فلسفياً وأدبياً تناوله الفلاسفة والأدباء منذ القدم، ومع تطوّر الحياة وتعمّدها أصبحت المسألة مسألة تحدّي لإثبات الكينونة وتحقيق الوجود، خاصة في بعض المجتمعات التي مازالت مشدودة إلى بعض الأعراف والتقاليد التي لا تقرّ في قاموسها الوضعي بالمساواة بين الذكر والأنثى، ممّا أثار الكثير من الجدل حول قضايا المساواة بين الجنسين، فانبرت العديد من الأقلام تدافع عن الجنس المقهور بدعوى التحرّر وإثبات الذات بخطابات فلسفية أو أدبية. وفي إطار حرية التعبير خاصة بعد الانفتاح الثقافي والاجتماعي والسياسي حاولت بعض الأدبيات العربيات الإدلاء بدلائهنّ في موضوع الأنا، فاستطعن حجز مساحات أدبية فنيّة متميّزة سجّلن فيها حضورهنّ. أنتجت الأقلام النسائية العربية خطابات سردية محمّلة بدلالات التحرّر والتحدّي لرهانات الواقع العربي المعيش، ومن بين تلك الأشكال الخطابية السردية خطاب الأنا الأنثوية الذي حاولت الساردة في الرواية موضوع الدراسة من خلاله تمرير رسائل مباشرة عن المعاناة والقهر والألم الذي تعيشه الأنثى العربية، مقابل المؤدّى التاريخي العام وما يحمله من تسلّط ذكوري. لتكون المحاولة مؤسّسة على فكرة إثبات الوجود والتحرّر، وهذا ما نهدف لإثباته في هذه الدراسة، القائمة على الوصف والتحليل، والمستفيدة من آليات المنهج التاريخي، والاجتماعي.

02. تصوّر الأنا من الميتافيزيقيا إلى الوجودية:

تناولت الدراسات النفسية والفلسفية والدينية والاجتماعية موضوع الأنا ماهيةً وتحليلاً، قديماً وحديثاً، من عصر إلى آخر، فمنذ أن خُلِق الإنسان على هذا الكون وُلدت معه رغباته وطموحاته، يحب ويكره، يقيم علاقات مع الآخر في إطار أسري أو مجتمعي أو أعم من ذلك، ففي القديم عند العرب مثلاً كانت الحياة قبلية في الصحراء فكان الفرد - هوية ذاتية - مندمجاً في القبيلة التي ينتمي إليها أو بالأحرى كانت هوية الفرد تتحدّد من خلال انتمائه إلى القبيلة باعتبارها منظومة اجتماعية ثقافية قائمة على أسس معيشية بيئية¹، إذ كان الفرد يعيش ضمن منظومة القبيلة لا يخرج عن إطارها ولا يحيد عن سننها وأعرافها وتقاليدها، بل أبعد من ذلك هو معها ظالمة أو مظلومة، بعد أن ابتكرها الإنسان (القبيلة) كياناً جماعياً يأمن إليه ويتحصّن به².

تطوّرت الحياة وتغيّرت أشكالها ونظمها تغيّراً جذرياً بدخول الإسلام شبه الجزيرة العربية ، فقد انتقل الفرد من نسق ثقافي إلى نسق ثقافي آخر من حدود القبيلة إلى إطار أوسع دينياً واجتماعياً وثقافياً بفعل الفتوحات والاحتكاك بالأمم الأخرى تأثيراً وتأثراً، خاصة بعد اطلاع العلماء المسلمين على حضارات الأمم الأخرى وترجمة منجزاتهم العلمية والفلسفية أخذت مسألة الذات بعداً آخر تناول مسألة الإنسان وعلاقته بالآخر ، وأصبح همّ الأفراد منحصراً في البحث عن حياة اجتماعية متوازنة منبثقة على المبادئ الأخلاقية في إطار مجتمع مثالي مستقرّ، ممّا دفع بالعلماء والفلاسفة إلى التفكير في القضايا ذات البعد الوجودي لضمان وتحقيق علاقة توازن بين الأنا والآخر ، فبرزت الفلسفة الوجودية الحديثة وأصبحت هذه القضية من أهم القضايا المركزية التي انشغل بها الفكر الفلسفي الحديث.

احتلّ موضوع الأنا مكانة مركزية في الدراسات الفلسفية الحديثة، فقد شغلت ثنائية الأنا والآخر اهتمام أبرز فلاسفة الوجود وقبل الخوض في بعض التفاصيل المتعلقة بالمنظور الفلسفي لأشهر هؤلاء الفلاسفة المحدثين الغربيين، لا ضير في أن نشير إلى المفهوم الاصطلاحي للأنا، فقد عرّفه العلماء المسلمون خاصة من تأثّر منهم بفلسفة المنطق اليونانية ومن بينهم عالم اللغة والمنطق والصيدلة والطب "الشيخ الرئيس ابن سينا" الذي قال بخصوص هذا الموضوع: "المراد بالنفس ما يشير إليه كلّ أحد بقولنا أنا"³. وورد في المعجم الفلسفي لمراد وهبة "الأنا ضمير المتكلم الواحد وهو تعبير عن النفس الواعية لذاتها"⁴ من خلال هذا التعريف اللغوي للأنا يبدو أنّها لا تتحدّد إلّا من خلال وعيها بذاتها. كما جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا عن الضبط الفلسفي لموضوع الأنا ما يلي: "تدلّ كلمة أنا على جوهر حقيقي ثابت يحمل الأعراض التي يتألّف منها الشعور الواقعي، سواء أكانت هذه الأعراض موجودة معاً

متعاقبة، فهو إذن مفارق للإحساسات والعواطف والأفكار، لا يتبدّل بتبدّلها ولا يتغيّر بتغيّرها.⁵ من خلال هذا المنظور فالأنا في المعنى الوجودي هو مساوٍ للشعور، وهذا يحيلنا إلى تلك الأبحاث التي قام بها الفيلسوف الطبيب النفسي النمساوي "سيغموند فرويد"

02. 01. الأنا في دراسات "سيغموند فرويد":

ركّز الفيلسوف الطبيب النفسي النمساوي "فرويد" (1856 – 1939) في أبحاثه على الدراسات النفسية الوجودية المتعلقة بالأنا والشعور واللاشعور، فسّط الضوء على مفهوم الأنا من حيث هو ذات واعية، أو بالأحرى هو الذي يشرف على الحركات الإرادية وباستطاعته كبت الرغبات الغريزية بفضل الحكمة وسلامة العقل، فهو مركز كلّ العمليات الشعورية.⁶ وهو إذ تعمّق في دراسة وتحليل الأنا يفصّل في التفريق بين: الأنا الذي ربطه بالذات الواعية العاقلة والهوّ المتمثّل في الرغبات والغرائز (اللاشعور هو ذلك القسم من الجهاز النفسي الذي يحوي كلّ العمليات النفسية اللاشعورية كالغريزة والرغبة ويسمى الهوّ، والشعور هو ذلك القسم من الجهاز النفسي الذي يحمل كلّ العمليات النفسية الشعورية وهو الأنا)⁷، وقد مثّل لعلاقة الأنا بالهوّ بمثال الرجل على ظهر الجواد؛ فالرجل يسعى ويحاول أن يتغلّب على قوّة الجواد، ولكنّه في حرصه على ألاّ يفقد جواده يضطرّ إلى قيادته إلى حيث يريد (الجواد)، فالأنا بنفس الطريقة يقوم بتنفيذ رغبات الهوّ.⁸ أمّا الأنا الأعلى فهو يمثّل القوانين والأعراف والأحكام، وعليه فإنّ الأنا من منظور "فرويد" الذات الواعية في علاقته بالهوّ وما تمثّله من غرائز ورغبات والأنا الأعلى وما يمثّله من قوانين وضوابط وتقاليده.

تغيّر المنظور إذاً إلى الأنا وانتقل من اعتباره مجرد كائن يحمل اسم الجماعة التي ينتمي إليها ويتماها في كائن معقّد مركّب له أجهزة لا بدّ من دراستها وتحليلها، لفهم علاقتها وإدراك سننها، ومن أبرز الذين اشتغلوا على مفهوم الأنا وأولوه عناية فائقة فيلسوف التأويلية الألماني "مارتن هايدغر".

02. 02. فلسفة "مارتن هايدغر" في مفهوم الأنا :

تتخذ مسألة الأنا لدى الفيلسوف الألماني "مارتن هيدجر" (1889 - 1976) بعداً آخر مخالفاً لمنظور "فرويد" ف"هيدجر" ربط مفهوم الأنا بالوجود ولم ينظر إليه منعزلاً، يرى أنّ الكائن الإنساني كائناً قائماً قوامه فعل الفهم، فهو (الفهم) السمة الأساسية للوجود⁹، أولى "هيدجر" الأنا اهتماماً بالغاً بتقديمه تصوّراً أنطولوجياً لمفهوم الأنا والآخر والوجود، إذ انحصرت مهمته الأساسية في استخلاص المقومات الأنطولوجية للوجود الإنساني، وماهية الإنسان تتحدّد في وجوده، والوجود يسبق ماهية الإنسان، وعليه فإنّ ماهية الأنا تتحدّد بالآخر والوجود الإنساني، والإنسان دائماً في حاجة إلى العالم ليحقّق إنسانيته، ومن هنا فالأنا لا يمكن فهمه بدون العالم¹⁰.

يؤكد "هيدجر" حقيقة أنطولوجية هي ارتباط الأنا بالعالم الخارجي ومدى انفتاحها عليه في علاقة وجودية تقوم على الشعور بالاهتمام، فالأنا ذات واعية وثيقة الصلة بالوجود والموجودات. وهو لم يستثن الحياة اليومية من الوجود الإنساني بل انطلق في تحليلاته الأنطولوجية للوجود الإنساني -أو كما يسمي هذا بـ "الآنية" - من الحياة اليومية التي نعيشها جميعاً بكل ما تحمل¹¹. ومن هذا المنطلق اهتم "هيدجر" بالأنا ذات تحيا وسط كيان اجتماعي تؤثر وتتأثر، تفرح وتغضب، لها إيجابياتها كما لها سلبياتها. ويصوّر "هيدجر" الوجود في صورة التكشف أو اللاتجسّب أي الكشف عن المستور أو التعزّي¹². فالذات ليست الأنا المنعزل القائم بكيانه بل هي كائن يحيا داخل عالم الوجود.

يصف "هيدجر" الكائن البشري بصفة التواجد وهي صفة تنطبق على الإنسان وحده، فالكائنات غير البشرية لا تتّصف بهذه الصفة لأنّ الإنسان وحده من يستطيع الدخول في علاقة مع نفسه¹³، دون غيره من المخلوقات (فه أنفسنا والتفكير والتساؤل والكبت والبوح... وغيرها من الصفات الإنسانية التي يستطيع بواسطتها الدخول في علاقة ذاتية مع نفسه).

تطرح مسألة الذات الواعية والأنا العاقلة أسئلة عديدة تستوجب دراسات معمّقة في الفلسفة من الميتافيزيقيا إلى الظاهرية والوجودية، لما تحمله من أهمية في الوجود ذاته منذ الأزل، لكن تتباين قضية الأنا حسب الوجود من مجتمع إلى آخر كلّ بخصوصيته، وقد حاولنا في هذه الدراسة التركيز على هذه المسألة في المجتمع العربي بما يحمله من خصوصية في الأعراف والتقاليد والضوابط الحادة التي تحكمه، خاصة حين يتعلّق الأمر بالأنا الأنثوية في المجتمع العربي.

03. سؤال الأنا في رواية أنا قبل كل شيء :

تحمل رواية "أنا قبل كل شيء" للكاتبة السعودية "الجوهرة الرمال" دلالات اجتماعية وأنساقاً ثقافية مضمرة، وأبعاداً وجودية يترجمها نسق إثبات الذات الأنثوية وسط تسلط المجتمع الذكوري في إطار بنية اجتماعية تسعى إلى تهميشها، إذ تقوم فكرتها على أسس فلسفية معتمدة على فكرة دعوة المرأة إلى التحرر، وإثبات الوجود خاصة إذا كانت تلك المرأة تعاني مرض فقدان البصر، مما يحيل إلى أنساق مضمرة عديدة بين الذات المقهورة، والأنثى المهزومة، ومجتمع يفضل الرجل على المرأة، بل أبعد من ذلك يهملها ويقصيها متجاوزاً أبسط حقوقها، والساردة إذ تكتب شيئاً من سيرته الذاتية تحاول إثارة تساؤلات ثقافية اجتماعية وكشف مدى معاناة المرأة العربية في "مجتمع مثقل بالتقاليد البالية وبارث طويل من الظلم والفكر الإقطاعي، مجتمع يجعل جثث النساء مطية يمشي عليها ويدوسها لتحقيق مآربه".¹⁴

03. 01. نسق إثبات الأنا الأنثوية في العنوان:

يصادفنا العنوان عتبة أولى فيها الكثير من التصريح "أنا" فالكاتبة تعلن وتفصح منذ الوهلة الأولى عن سيرة ذاتية وإثباتاً وجودياً كان مغنياً بفعل عدة عوامل في مجتمع عربي عرف بالقبلية، ويؤثر هذا الفعل على اختمار فكرة فلسفية وجودية شيدت الساردة خطابها السردى على أسسها . ورد العنوان: "أنا قبل كل شيء"¹⁵ تركيب إسنادي حُذف فيه المسند إليه اسم الإشارة هذه (هذه أنا)، فالمسند هنا ضمير المتكلم "أنا" الذي يحمل دلالات إثبات الذات والتحدي ويحيل على ذات الساردة المؤلفة ، أضيف إليه الشبه جملة الظرفية "قبل كل شيء" الدالة على محاولة استظهار الحجم الكبير لمعاناة الذات المقهورة و الاهتمام بالأنا من جهة ورفض التسلط الذكوري وتحدياً لمنظومة اجتماعية تهمش الأنوثة من جهة أخرى.

ورد العنوان تركيباً انبنى على طرح فلسفي وجودي كما أشرنا، فقد يتبين لنا مدى سعي ذات البطلة إلى التحرر وتحقيق كينونتها، وهو سعي حثيث للانسلاخ من الصورة النمطية المرسومة للذات الأنثوية العربية في المجتمع القبلي بكل أعرافه وتقاليده السلبية التي تخالف التعاليم الدينية ولم تكن يوماً في صالح الأنثى التي تواجه معركة التحرر وإثبات وجود الذات عبر التاريخ.

03. 02. سيكولوجية الذات الأنثوية المقهورة :

تغوص الساردة في أعماق الذات الأنثوية المقهورة من خلال الراوي المشارك في الأحداث أو البطل نفسه -المؤلفة-، فهي تسعى سعياً حثيثاً إلى تحقيق ذاتها الأنثوية، والمرأة الشرقية عامّة تتطلع إلى توضيح فكرة أنّ المؤنث ليس ضمير وجود وهوية بقدر ما هو هامش وجودي أي ذات مهمشة وجودياً منذ العصر الجاهلي.¹⁶ فقد تحولت المرأة بفعل التاريخ والحضارة إلى كائن ثقافي بُخِست حقوقها وتمّ استلابها، ومحور هذا التحول هو الانتقال من الجوهر والذات إلى النمطية ومجرد مجموعة صفات.¹⁷

أصبحت معركة المرأة الشرقية والخليجية خاصة معركة إثبات الوجود، معركة مواجهة الترسبات التاريخية الحاملة لكمّ من الإخفاقات في ذاكرة ملؤها الودّ والتهميش.¹⁸ فالمرأة مثلاً صريحاً على وضعية القهر ففي شخصها تتجمع كلّ مظاهر العجز والتخلّف وجميع عقد النقص والعار، هي أكثر العناصر الاجتماعية تعرّضاً للتبخيس¹⁹.

تحيلنا الساردة في المتن إلى مواقف عدّة تبرز حجم الضغوطات الممارسة على المرأة في مجتمع يتّخذها أداة في تسلّطه الذكوري، "اسمي (ورد) الاسم الذي اختارته أمّي ورفضه أبي...لم ينادني باسمي قط..."²⁰. منذ الوهلة الأولى وفي بداية السرد تتكشف الأنا المقهورة المهمّشة الضعيفة. فالبطلة /الساردة تحاول أن تبرز أنّها أداة في يد الرجل يحركها خدمة لمآربه، وفي كلّ حالة ما هي إلا وسيلة من وسائل التعويض عن المهانة والقهر الذي يعيشه الرجل اجتماعياً.²¹ فهو بدوره يمثّل مجتمعاً قلياً تنماهى فيه الذات الإنسانية في الأنا القبلية، بكلّ مظاهر القبيلة.

وفي موقف آخر تكشف لنا المؤلفة عن الإحساس بالقهر والتهميش الكبير الذي تعيشه البنت العربية في المجتمعات القبلية ذات الأسر كثيرة العدد، خاصة إذا كان العدد أنثوياً بامتياز "نسيت أنّ أخبركم أنّ عمري آنذاك سبع سنوات، ولا صديقة لي سوى هيفاء التي تشعرني بشيء من الاهتمام...بعد أنّ أهملتني والدتي التي أنجبت ثلاث أخوات أخريات بعدي. وقضت معظم وقتها منشغلة بهنّ."²² فمن مظاهر القهر التهميش والإقصاء؛ حينها يشعر الفرد بالألم الذي يعدّ خبرة نفسية سيكولوجية تحمل الإحساس بالمعاناة.²³ هذا نوع من المعاناة الذي لا يتمظهر بمظاهر المعاناة الطبيعية، لكنّها معاناة يحسّها الإنسان المهمّش ممّا يولّد لديه إحساساً بالألم قد لا يبارحه ما تبقى من حياته.

تصوّر لنا المؤلفة نموذجاً آخر من نماذج القهر الذي تعيشه المرأة العربية، وهو هذه المرأة إهمالها من طرف أهلها حتى وإن كانت مريضة مرضاً عضالاً، وفي الحقيقة هو قهر يتعرّض له الإنسان الذي يعيش في القرى بعيداً عن مرافق الحياة العصرية إذ يتهدّده ثالث الموت (الفقر والجهل والمرض)، وإذا كان هذا الإنسان أنثى ثقل الوطاء عليه، هي صورة أختها "حنان" المصابة بمرض التوحّد، "الفقر الذي كان يحوم حول قريتنا، وبعدها عن المدينة والخدمات .. كلّ هذا أجبر حنان على أن تنشأ وتحمل مرضها ليكبر معها أكثر انطواء .. أكثر ريبة.." ²⁴ كما تنقل لنا الساردة البطل مشاعر الإحساس بالعطف على كائن ضعيف يعاني مظهراً من مظاهر القهر ؛ حين مرضت أختها حنان واكتفى الجميع بمعاملتها معاملة المجنون العاقل والنظر إليها نظرة العطف. ²⁵

في إشارة من المؤلفة إلى حجم القهر الذي تعانيه الفتاة العربية في المجتمعات العربية تنقل لنا مشهد مرض الطفلة البريئة التي لم تسلم من شكوك والدتها بشأن ادّعاءها المرض، "كنت ابحت عن وسيلة إقناع بسيطة بحجم طفلة بريئة، وهي تظنّ أنّها حيلة استمرار كاذبة كحيلة محمد الذي تصدّقه أمي في كلّ مرة .. ²⁶ من خلال هذا المقطع السردى تتّضح لنا صورة القهر والمعاناة النفسية للأنثى وهي تعيش في أسرة تمثّل المجتمع العربي القبلي الرجالي بامتياز والذي لا يتخلّى عن مكانة الذكر ولا يجرأ على التنازل عنها حتى في المرض، فالطفل في المجتمع العربي هو المدلّل وهو الصادق الأمين في كلّ الظروف والأحوال.

03.03. التسلّط الذكوري:

تحاول المؤلفة إثبات وجهة نظر المرأة العربية بصفة عامة التي تنظر إلى الرجل على أنّه كائن ذكوري متسلّط لا يقرّ بمجانبة المرأة له في الحقوق منذ عهود المجتمعات القبلية وحتى بعد دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة العربية الذي لم يستطع أن يغيّر من تلك الوضعية ليبقى المنظور هو هو إلى يومنا هذا، فشواهد التاريخ تشير إلى أمرين بما يتّصل بالمرأة، فمن جهة لها حقوق أنثوية أصلية، ومن جهة تشير إلى استلاب جماعي مستمرّ ، لكن الشيء الذي تؤكّده حتى النساء ولا تنكرنه هو أنّ الديانات السماوية أعطت المرأة حقوقها وأعلت مكانتها وأغدقت لها المكارم غير أنّ الثقافة والتاريخ بخسها وسلبها هذا الحق المكتسب. ²⁷

إذا كانت الأديان السماوية بوصفها أديان فطرة منحت المرأة حقّها الطبيعي، لكن الثقافة باعتبارها صناعة بشرية تخضع للأعراف والتقاليد هي التي سلبت المرأة هذا الحق الطبيعي، فهذه الصناعة الذكورية هي التي أحالت الأنثى إلى كائن ثقافي مستأب.²⁸

تتراءى لنا في المتن العديد من الأنساق الصريحة والمضمرة التي تؤكد على التسلط الذكوري مقابل معاناة الأنثى ومعركتها الدؤوبة لمواجهة هذا التسلط وإثبات ذاتها، ومن تلك الأنساق: "بعد أن أهملتني والدتي التي أنجبت ثلاث أخوات أخريات بعدي . وقضت معظم وقتها منشغلة بهنّ. في تلك الحقبة، تزوّج والدي بحجة واهية مقتضاها رغبته في إنجاب ولد ذكر، حينها شعرت أننا لعنة على أمي...²⁹

تستوقفنا العديد من الوقفات السردية التي تحيلنا على اهتمام الساردة بإبراز معاناة المرأة الشرقية عامة والخليجية خاصة من إهمالها وعدم مساواتها بالرجل الذي أتاح له الأعراف والتقاليد والنظم السائدة الاستقواء إلى حدّ التتمّر والتسلط، "...إذ إنّي قلّما أجد محمدا يبكي، فلمّ البكاء وكلّ أمر له يُطاع؟³⁰ تحاول المؤلفة من جهة أخرى أن تبين أن الرجل ذاته يقع ضحيةً للتسلط الذكوري والإقصاء الممارس على الأنثى، وهو ما حدث لوالد الساردة بطلاة القصة: "سمعت صوت أبي لأول مرة ينادي: ورد، كنت أودّ أن أخبره أنّي عفيفة، وأنّي اعتدت على هذا الاسم منه، فمن هي ورد يا أبي؟ هل هي أنا حقاً؟ !!

أم ابنة الجيران التي عشت معها قصة حبّ من خلف الجدران...حتى انتهت قصة الحبّ سريعاً عندا خُطبت للتاجر الأسمر الذي يأتي بقطع الحرير للقرية، وساقها والدها كبهيمة ملفوفة بقطعة حرير له. عرفت لمّ لم تشتر الحرير يوماً لأمي!"³¹ ليس المرأة وحدها إذاً معرضة لهذا التسلط فتأججه قد تمتدّ إلى عقود زمنية أو أكثر ممّا يجعل الجنسين سوّيين يصارعان الأعراف القبلية البالية المتسلطة، ومن التحدّيات التي تواجه الأنثى في المجتمع العربي تلك العادات الموروثة التي تساهم في توسيع دائرة الاضطهاد والتهميش والتقييد الذي تعاني منه المرأة .

تواجه المرأة إلى يومنا أشكالا عدّة من التمييز والتهميش، فالتمييز ضدّ المرأة مصطلح فحواه التفرقة أو الاستبعاد أو التقييد الذي يتمّ على أساس الجنس وممّا يترتّب عليه إضعاف أو إحباط الاعتراف بما للمرأة من حقوق، وممّا لا شكّ فيه أنّ صورة المرأة في المجتمع العربي كجنس بشري أقلّ شأنًا من جنس الرجل،

ولا يزال التمييز صفة لكل المجتمعات.³² وحتى داخل الأسر العربية أين يكون كل الاحترام والتقدير للرجل، أما المرأة فلها النظرة الدونية بالرغم من النقص الملحوظ في كل المجالات.

تُتهم الأنثى في المجتمعات القبلية بالعجز عن الإنجاب أو حتى العجز عن إنجاب الذكور بالرغم من أن هذا الأمر مردّه بيولوجيا تتحكم فيه كرموزومات ذكورية، تحيلنا بعض العبارات في المتن على هذا النسق الثقافي الاجتماعي، "...أخبركم أن أمي أسمتها (كفاية).. لتعلن كفايتها من البنات. ولعل الله يرزقها بمولود ذكر لتحظى بوالدي من جديد، بعد أن فرّ إلى سرير آخر وأحلام أخرى."³³ تهجر المرأة وتضطهد من طرف الرجل بسبب إنجاب الإناث، هذه الظاهرة السلبية لا زالت المجتمعات العربية تعاني منها .

من أبلغ صور القهر حين يسببه أقرب الناس إليك لا شيء إلا كونك خلقت أنثى تخالف الذكر الذي يحسّ إزاءها بالعار، فهي "ورد" بطلة القصة (ورد كما سمتها والدتها أو عفيفة كما سماها والدها) تخبرنا عن عمّتها "زكية" التي كان أخوها "صالح" (والد عفيفة) حاجزا منيعا لسعادتها: "كنت أشعر بوجع مزمن وبخيبة كبيرة يطوّقانها أبطالهما والدي والزمن!"³⁴ تدخل الأخ الأكبر "صالح" مشدوداً إلى الأعراف والتقاليد ووقف سداً أمام سعادة شقيقته. ومن بين أبرز أسباب الرفض كون العريس "عيسى" من أسرة العبيد لا يرتقي إلى مستوى أسرهم، "بنت ارجعي ما يصلح لك.

- بنفس دمعي المرتجف ألتقت له لأسأله. صوتي المرتجف كان متقطعاً، وصوته كان حاداً جداً.

- عيسى عبد.³⁵

رغم ذلك الحب القوي الذي عاشته زكية مع عيسى إلا أنه حبّ باء بالفشل لمخالفته الأعراف والتقاليد السلبية التي تتنافى والنظم الاجتماعية والدينية فكل الشرائع السماوية حاربت التمييز العنصري ودعت إلى إقامة العلاقة المقدسة على أساس الألفة والتوافق وليس على أساس عرقي. وديننا الحنيف سباق إلى نبذ هذه الظاهرة السلبية.

تكشف الساردة في وقفة من وقفات الرواية عن شكل تسلط آخر بطله والدها صالح الذي قدّم فلذة كبده المريضة (حنان) إلى شيخ يقاربه سنّاً ظناً منه أنه آمن لها حياتها، "لقد قرّر والدي صالح أن يزوّجها

من جارنا أبي فهد والذي يقارب والدي بالعم، لا أعرف هل هي شفقة من أبي فهد أو صفقة خاسرة من والدي.³⁶ فالمريض ليس في حاجة إلى التزويج بقدر ما هو في حاجة إلى أهله للاعتناء به. تحاول المؤلفة تشريح البنى الاجتماعية القائمة على التخلف والجهل الذي يُنشئ أشكالاً من المظاهر السلبية، حتى الإصابة بمرض أو بعاهة جسدية يعرض صاحبه إلى الإقصاء والتهميش منعوتاً بأقسي عبارات الذمّ، تُنعت "وَرْد" بالعمية من طرف عمّتها زكية: "أوووش يالعميا !! لم أستغرب من هذا فكانت دوماً تناديني بذلك، وتتعتني بهذا النعت."³⁷ فكيف للمريض المقهور أن يتعايش مع كلّ هذه العبارات القاسية وكيف له أن يتقبّل هذا الوضع ؟

عاشت البطلة في المتن كثيراً من صور ومشاهد الإقصاء والتهميش بفعل التسلّط الذكوري والمجتمعي، خاصة بعد إصابتها وفقدانها للبصر، ممّا ضاعف من وتيرة الإحساس بالمعاناة والألم حتى بلوغ حدّ الانكفاء على الذات.

03. 04. الانكفاء على الذات:

يشكّل الأنا والآخر علاقة تكاملية وجودية كلاهما متوافقان اجتماعياً وثقافياً وهو توافق مبني على الاحترام المتبادل والتسامح والاعتراف، فوجود الذات تستدعي وجود الآخر إذ هما شكلان لا ينفصلان في الحياة.³⁸ لكن وبفعل ما تفرضه الطبيعة من بلاء، وما يسبّبه المتسلّط من قهر قد تبادر الذات المقهورة بحركة التقوقع ورفض مجابهة التحدّيات الراهنة.³⁹ فيلجأ الإنسان إلى العزلة والانكفاء على الذات إذا أحسّ بالمعاناة والألم الذي يسبّبه الآخر وعجز عن التحدّي والمواجهة، خاصة إذا كان الأمر طبعياً قدراً مقدوراً، فقد يصادف أشخاصاً لا يقدّرون وضعه ولا يحترمون حتى الإرادة الإلهية، ومثل هذا الوضع تصوّره الساردة قائلة: "...الفقد الذي يجعلك تغيب عن أنظارهم؛ هو الفقد المؤقت الذي يجلب الحزن والبكاء ويذيب وجهك بعد العزاء.. أمّا الفقد الحقيقي فهو أن تبقى صورة عالقة على جدران الحياة ببرواز

يهرم ويهترئ دون أن تدرك عمره...الفقد الذي يجعلهم ينسون سريعاً ويعتادون واقع إعاقتك ويشعرون بالملل منها، دون أن يعيشوها معك.⁴⁰

يتنازل الإنسان المصاب بعاهة جسدية حتى عن أبسط حقوقه، هرباً من المواجهة، "تركت الدراسة.. فلا مكان للكفيلة بينهم! كنت أسأل نفسي ما الفرق بيني وبين حنان، طالما والدتي أصبحت تشاطرنني العطف ذاته، وعمّتي ما عادت مسؤولة عني كما كانت . أشعر بالارتياح كونها بعيدة عني.⁴¹ بالرغم من أن المدرسة تشكّل فضاءً رحباً وانفتاحاً ثقافياً وفرصة لتحقيق الذات والدخول في علاقات صداقة من شأنها أن تنتزعك من محيطك المكهرب.

تراكمت على الأنثى -كما بيّنته المؤلفة- الرهانات والتحديات الطبيعية والاجتماعية والثقافية، فهي لا شيء من منظور الآخر وهي سبب التخلف والعار والنقص .

تتقاطع ذات البطلة "ورد" بذات عمّتها "زكية" في اعتزال الناس والانكفاء على الذات، وكلّ هذا هرباً من مواجهة الآخر الذي أجازت له الأعراف والتقاليد أن يتمادى في غيّه ويدوس على كرامة أخته أو زوجته أو حتى ابنته، تحدّثنا البطلة عن قرارها عقد صفقة مع عمّتها مفضحة عن مصيرهما الواحد "...وبما أنني لا أملك شيئاً .. قرّرتُ أن تكون صديقتي، فنحن نتشابه كثيراً بالوحدة، سوى أنّ خيبتها تفوقني عمراً.⁴²

تتهرب الذات المقهورة من المشاركة في كلّ ما هو عامّ لا تستجيب لنداء ولا تتخرط في نشاط جماعي، ممّا قد يُفسّر بالسلبية، بينما هو رفض للآخر قوامه الاختلاف الجذري بين عالمين متعارضين متناقضين.⁴³ كلّ هذا تحاول المؤلفة إثباته في عملها السردي وهي مساعٍ مؤسسة على فكرة التحرّر من قيود الأعراف والتقاليد القبلية البالية التي تقصي في قاموس عرفها الأنثى وتتجاوزها، فالانكفاء على الذات في المجتمعات القبلية ليس هروباً من المواجهة بقدر ما هو رفض ومسعى للتحرّر .

03. 05. القلق الوجودي ورفع التحدي إثباتاً للذات :

يبدو أنّ رؤية المؤلفة تتأسس في عملها السردي على فكرة إثبات الذات والتحرر من كلّ المظاهر السلبية التي تحملها أعراف المجتمعات القبلية، فكلّ الإخفاقات التي تعرّضت إليها وكلّ المضايقات المفروضة عليها وكلّ أنواع القهر التي تسببت في معاناتها، حسب النصّ، ولدت لها الإصرار والتحدّي والتصميم على المواجهة والاهتمام بذاتها قبل كلّ شيء ليرد العمل معنوياً "أنا قبل كلّ شيء" محملاً بدلالات إثبات الكينونة من جهة وبمعاني الرفض لكلّ ما هو سلبي قائم سداً أمام مصيرها. فقد قرّرت البطلة النهوض لتغيير مصيرها بعد أنّ راودتها فكرة تسجيل الأحداث التي تعيشها بواسطة مسجّل صوتي ملك لعمّتها، "...وفجأة قفزت فكرة لذهني ..

ماذا لو أنّني استعرت هذا الجهاز الصغير، لأسجّل به رسائل إليّ بعد عام ؟!

قبل أن يبتلع القدر صوتي كما ابتلع بصري وأشياء كثيرة أحسست للحظة أنّي سأحدث نفسي أخيراً...⁴⁴

اتّخذت الساردة البطلة في المتن نقطة انعطاف وتحول في مسار حياتها الخاصة (حادثة استغلال مذياع عمّتها لتسجيل مذكراتها اليومية) فبدأت برحلة العودة إلى الذات وكلّها إصراراً وعزماً على الاهتمام بنفسها فقط ممثلة لأنّ أنثوية تواجه تحديات ورهانات فرضتها أعراف وتقاليد مجتمعات قبلية. فقرّرت الخروج من عزلتها إلى الحياة ومحاولة معاشتها بكلّ ما أوتيت، ومن مظاهر ذلك في المتن لجوؤها إلى اللعب مع الأطفال سعياً إلى التغيير: "الأطفال وحدهم من يجعلونك تخرج من معزلك لتستنشق الحياة وتحبّها."⁴⁵ من خلال هذا المقطع تظهر المؤلفة مصرة على الخروج إلى الحياة ومحاولة معاشتها بعد تجربة مريرة مع الانكفاء على الذات واعتزال العالم ممّا سبّب لها قلقاً وجودياً واضطراباً كاد يؤدي بحياتها، وهو مصير كلّ أنثى تستسلم للقيود التي تفرضها مثل تلك الأعراف البالية.

حين قرّرت البطلة في الرواية العودة إلى الحياة بعد أنّ أعاد الله لها بصرها الذي فقدته، اكتشفت حجم الظلم والقهر الذي كانت تتعرّض له، "...وإنّ كانت العودة بوجع لكنّي عدت .. كلّ شيء كان اليوم هو كذبة.. حتى بلون ثيابي يكذبون وعلى متن مشاعري وعلى عيني يرتعون...⁴⁶ لكن بعد كلّ ما عانته تقرّر أنّ تعيش لنفسها فقط، صلّت لربّها ودعته أن يخلّصها من هذا الجحيم، لتخلص: "انتهيت من صلاتي ومعني قرار واحد / أنا قبل كلّ شيء".⁴⁷

تكشف لنا الساردة عن سعادتها وعودة الأمل لديها -بعد قرار العودة إلى الوجود- في التحرر وهي فتاة تعيش حياة لم تشتهاها يوماً، " عندما تنام ومعك قرار جديد وإيمان بالله فأنت بخير. حتى أحلامك تتلاشى منها الرمادية ويسكنها لون الشمس الذي يوحي إليك بأن كل شيء غاب يوماً سيشرق من جديد..⁴⁸

تستوقفك، وأنت تقرا الرواية، بعض الفقرات التي تحمل تصريحاً مباشراً عما تعيشه الفتاة العربية من أشكال الظلم والإقصاء، وما تواجهه من معاملات سيئة إذ يبلغ الأمر إلى اتخاذها أداةً للإنجاب وأداء الأشغال الشاقة لا غير، " .. ولكن أحتاج أن أخبركم أننا هنا حيث تحكمنا العادات فهذا العمر هو لأنثى تصلح لكل شيء، لانتفاخ بطنها مراراً، ...عمر الحياة الزوجية يبدأ كما بدأ عند أمي وأخواتي والجميع أربعة عشر عاماً.. الحمد لله تجاوزت هذا وهربت منه إلى الظلام..⁴⁹ هو كلام فيه الكثير من التصريح ب التمرد على تلك الحياة بكل ما تحمله من أشكال القهر والتهميش والإقصاء التي تتعرض لها الأنثى في تلك المجتمعات.

تنقل إلينا الساردة عبارات الاعتراف، هو اعتراف بما تعلمته من مدرسة الحياة بعد كل ما عانته من صدمات جعلتها تقف لتواجه الحياة: "تعلمت كيف أجمع نفسي بعد كل صدمة كيف أعيد ترتيب ملامحي بعد بعثرتها كتخفة ثمينة...تعلمت كيف أقوم اعوجاجي. وكيف أركض بساق عرجاء".⁵⁰ تحمل العبارات الأخيرة من هذا التصريح الكثير من دلالات التحدي والمواجهة لرهانات الحياة، كما توحى بالإصرار على التحرر وإثبات الذات والاهتمام بها قبل كل شيء.

04. الخاتمة :

أنجبت المؤلفة خطاباً سردياً نسوياً تأليفاً وبطولة وظفت فيه أسلوب البوح والاعتراف وأحياناً المناجاة، في محاولة تسريد الواقع المعيش، واعتماداً على ضمير الأنا الأنثوية، استطاعت أن تكون بذلك ممثلة لصوت الأنثى العربية التي تواجه تحديات إثبات الذات المقهورة، خاصة في المجتمعات القبلية التي لا تزال في أعرافها متمسكة بالهيمنة الذكورية ولا تعير اهتماماً لجنس الأنثى.

كشفت المؤلفة / الساردة في خطابها الذي كانت فيه صريحة عن أنساق ثقافية تراوحت بين مظاهر وأشكال الظلم والقهر الذي تتعرض له المرأة في بيئتها العربية القبلية وبين التسلط الذكوري، والدعوة إلى

التحرّر، متجاوزة بذلك بعض الطابوهات. فكانت المحاولة صرخة متحدية للنظم الاجتماعية والموروث الثقافي.

05. قائمة الإحالات:

- 01- عبد الله محمد الغدّامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، ط 02، الدار البيضاء المغرب، 2009، ص 25.
- 02- المرجع نفسه، ص 112.
- 03- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، 1982، ص 139.
- 04- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، 2007، ص 95.
- 05- جميل صليبا، المرجع السابق، ص 140.
- 06- سيجمند فرويد، الأنا والهؤ، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط 04، القاهرة مصر، 1982، ص 16.
- 07- المرجع نفسه، ص 15.
- 08- المرجع نفسه، ص 43.
- 09- ينظر: ميلود بلعاليا دومة، الشاقف وخطاب التأويل المعاصر، مجلة جسور المعرفة، مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، ديسمبر 2017، ص 82.
- 10- عبد الله عبد الهادي، عبد الله المرهج، الأنطولوجيا الأساسية في فلسفة هايدغر، كلية الآداب، جامعة واسط، عمان، (دس)، ص 08.
- 11- مارتين هيدجر، نداء الحقيقة، تر و تق و دراسة: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة مصر، 1977، ص 11.
- 12- المرجع نفسه، ص 34.
- 13- المرجع نفسه، ص 43.
- 14- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 55.
- 15- الجوهرة الرمال، أنا قبل كل شيء، دار الأدب العربي للنشر والتوزيع، ط 04، الدمام السعودية، 1438 هـ، 2017، ص 01.
- 16- عبد الله محمد الغدّامي، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، ط 03، بيروت لبنان، 2005، ص 134.
- 17- عبد الله محمد الغدّامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط 03، بيروت لبنان 2006، ص 16.
- 18- المرجع نفسه، ص 136.
- 19- مصطفى حجازي، التخلّف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، ط 09، الدار البيضاء المغرب، 2005، ص 199.
- 20- الجوهرة الرمال، المصدر السابق، ص 09.
- 21- مصطفى حجازي، المرجع السابق، ص 200.

- 22- الجوهرة الرمال، أنا قبل كل شيء، ص 13 .
- 23- عبد الباقي جريدي، شعرية الألم في رواية مي ليالي إيزيس كويبا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية، مجلة نقد وتنوير، العدد 12، تونس، 2022، ص 162 .
- 24- الجوهرة الرمال، المصدر السابق، ص 70 .
- 25- ينظر: الجوهرة الرمال المصدر السابق، ص 16 .
- 26- المصدر نفسه، ص 17 .
- 27- عبد الله محمد الغدّامي، المرأة واللغة، ص 16.
- 28- المرجع نفسه، ص 17 .
- 29- الجوهرة الرمال، أنا قبل كل شيء، ص 13.
- 30- المصدر نفسه، ص 14 .
- 31- المصدر نفسه، ص 19 .
- 32- أحمد جمعة، القضاء على كافة أشكال العنف ضدّ المرأة -دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، الوراق للنشر والتوزيع، ط 01، عمان، 2014، ص 15.
- 33- الجوهرة الرمال، الرواية، ص 31 .
- 34- المصدر نفسه، ص 38 .
- 35- المصدر نفسه، ص 36 .
- 36- الجوهرة الرمال، أنا قبل كل شيء، ص 71 .
- 37- المصدر نفسه، ص 46 .
- 38- حبيب الشاروني، فلسفة جان بول سارتر، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص 64 .
- 39- مصطفى حجازي، التخلّف الاجتماعي، ص 101 .
- 40- الجوهرة الرمال، المصدر السابق، ص 26 .
- 41- الجوهرة الرمال، أنا قبل كل شيء، ص 37 .
- 42- المصدر نفسه، ص 44 .
- 43- مصطفى حجازي، التخلّف الاجتماعي، ص 102 .
- 44- الجوهرة الرمال، الرواية، ص 44 .
- 45- الجوهرة الرمال، أنا قبل كل شيء، ص 64 .
- 46- المصدر نفسه، ص 106 .
- 47- المصدر نفسه، ص 117 .
- 48- المصدر نفسه، ص 119 .
- 49- المصدر نفسه، ص 120 .
- 50- المصدر نفسه، ص 137 .

06. قائمة المصادر والمراجع:

* المصادر:

- الجوهرة الرمال، أنا قبل كل شيء، دار الأدب العربي للنشر والتوزيع، ط 04، الدمام السعودية، 1438 هـ، 2017.

* المراجع:

- 01- أحمد جمعة، القضاء على كافة أشكال العنف ضد المرأة -دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، الوراق للنشر والتوزيع، ط 01، عمان، 2014.
- 02- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، 1982.
- 03- حبيب الشاروني، فلسفة جان بول سارتر، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، (د.ت).
- 04- سيجمند فرويد، الأنا والهؤ، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط 04، القاهرة مصر، 1982.
- 05- عبد الباقي جريدي، شعرية الألم في رواية مي ليالي إزييس كويبا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية، مجلة نقد وتنوير، العدد 12، تونس، 2022.
- 06- عبد الله عبد الهادي، عبد الله المرهج، الأنطولوجيا الأساسية في فلسفة هايدغر، كلية الآداب، جامعة واسط، عمان، (دس).
- 07- عبد الله محمد الغدّامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، ط 02، الدار البيضاء المغرب، 2009.
- 08- عبد الله محمد الغدّامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط 03، بيروت لبنان 2006، ص 16 .
- 09- عبد الله محمد الغدّامي، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، ط 03، بيروت لبنان، 2005.
- 10- مارتن هيدجر، نداء الحقيقة، تر و تق و دراسة: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة مصر، 1977.
- 11- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، 2007.
- 12- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، ط 09، الدار البيضاء المغرب، 2005 .
- 13- ميلود بلعالي دومة، الثقاف وخطاب التأويل المعاصر، مجلة جسور المعرفة ، مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، ديسمبر 2017.
- 14- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

